

اللغة العربية

دورها وأهميتها في القرون الوسطى وفي أيامنا الحاضرة

الدكتور بيدوستي

جامعة فاروسيا

ترجمة وتعليق الاستاذ محمد بن زيان

لذلك السبب ، ثم ما لبث ان فك هذا الربط فاستقل علم اللغة وانشئت له المدارس والمراكز فاشتهرت من بينها في القرن التاسع للميلاد خاصة البصرة والكوفة في العراق ، وقد تميز فقهاء اللغة في البصرة بطريقة كانت تغلب عليها الصبغة النظرية بينما كان مذهب الكوفيين يكتسي صفة تجريبية فكانوا - مثلاً - يكتثرون من جمع العناصر المستمدة من اللهجات لتمييز وجهة نظرهم ..

ولقد نشأ من هذا التنافس ازدهار في علم اللغة وتطور اللغة العربية لم يسبق له نظير ، وظهر من بين اعلامه الخليل ابن احمد صاحب أول معجم وهو « كتاب العين » ، وسيبويه مؤلف « الكتاب » وهو من اعظم ما ظهر من المؤلفات في النحو كما يدل على ذلك تعدد شروحه وبقاؤه حتى الآن اساساً من اساس دراسة النحو .

وقد اتبع فقهاء اللغة في وضع كتبهم نظاماً مختلفة أهمها ثلاثة :

أولاً - النظام السيميائي المرتكز على جمع المترادفات حول موضوع ما كالخيل والابل والنخيل والصحراء ...

ثانياً - النظام المرتكز على مخارج الصوت واللفظ كما هو مطبق في كتاب « جمهرة اللفظة » لابن دريد (المتوفى سنة 934 ميلادية) وفي « تهذيب اللفظة » للزهري (المتوفى سنة 980 م) وكان هذا المؤلف الأخير من أهمها كتب اللغة ومن المصادر

تحت هذا العنوان وفي هذا العدد من مجلة « اللسان العربي » نشرنا باللغة الفرنسية - نقلاً من البولونية - مقالاً ممتعاً بقلم الدكتور بيلاوسكي رئيس قسم اللغة واللهجات العربية والاسلام بجامعة فرسوفيا .

ومن أهم ما ابرزه في هذه الدراسة القيمة من تطور لغة الضاد انها احدث اللغات السامية واعظمها ثروة ، وقد تحولت بصورة مذهشة من لهجة كان البدو يتكلمون بها في صحراء شبه جزيرة العرب الى لغة ثقافية وحضارة وعلم فانتشرت حيثما انتشر القرآن الكريم والاسلام حتى اصحت هي اللغة القومية والرسمية او على الأقل لغة الدين في الامبراطورية العربية الشاسعة الاطراف من الصين والهند شرقاً الى محيط الاطلس واسبانيا غرباً .

والدكتور بيلاوسكي شديد الميل الى النظرية الحديثة التي ترجع اصل لغة القرآن الى نجد بدلاً من مكة وان كان النحاة وكل من تبهمم اجتمعوا على ان لهجة قريش هي التي كانت اصل العربية ، معلاً ذلك بازدهار الشعر الجاهلي في الربوع النجدية وحبوبية اللغة فيها ولصاحة أهلها وبلاغتهم .

وعلى كل فان هذه اللغة التي طالما بقيت على الفطرة أصبحت منذ القرن الثامن الميلادي موضوع البحث والدراسة وكان الباعث على ذلك في المرحلة الأولى هو الحرص على ضبط والتدقيق في تفهم كلام الله وشرحه فكان ارتباط علمي اللغة والدين وثيقاً

الكبرى التي أصبحت منهلا للمعاجم الموضوعة بعد ذلك مثل « لسان العرب » لابن منظور (القرن الثالث عشر بعد الميلاد) الذي ربيت فيه الكلمات ترتيبا الفبائيا لكن ابتداء من اواخر الحروف .

ثالثا - النظام المرتكز على الترتيب الالفبائي ، وقد ظهر لأول مرة في جزء فقط من اجزاء « جمهرة » ابن دريد - ثم في « تاج اللغة وصحاح العربية » المعروف ، « بالصحاح » لأجوهري (المتوفى سنة 1003 ميلادية) ، ثم في « مقاييس » اللغة لابن فارس المتوفى سنة 1008 ميلادية .

ومن اشتهروا في الاندلس وعرب الاسلام من علماء اللغة ابن سيده المتوفى سنة 1065 واضع « كتاب المخصص في اللغة » و « كتاب المحكم والمحيط الاعظم » وهذا المعجم الاخير له يطبع منه الا ثلاثة اجزاء وهو مرتب ترتيبا صوتيا على غرار طريقة الخليل .

كما اشتهر بعد ذلك - في القرن الثامن عشر - الثريدي صاحب « تاج العروس » الذي يعتبر ركن من اعظم اركان اللغة العربية .

بعد هذه النظرة الموجزة عن الدراسات اللغوية وما انتجه اللغويون - خصوصا - في القرنين التاسع والعاشر للميلاد نخلص الدكتور بيلوسكي الى موضوع تعريب اقاليم الامبراطورية الاسلامية وانتشار الفصحى واللهجات العربية ، فبين كيف راحت لغة القرآن تغزو غيرها من اللغات وتحل محلها فاضمحت امامها الصابية والمينية في جنوب الجزيرة ، والارامية في الشام وفلسطين والعراق ، والتبعية واليونانية في مصر على ان حركة التعريب اصطدمت ببعض المقاومة لدى المسيحيين السوريين والاقباط فلم يتم تعميم استعمال العربية بينهم الا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين .

اما في بلاد الفرس فقد اخذت لغة الضاد في الانتشار منذ الفتوحات الاسلامية الاولى واستمر استعمالها معما حتى القرن العاشر للميلاد حيث ظهرت حركة مقاومة تهدف الى احياء اللغة الفارسية التي استعادت مكانتها القومية في الادب والشعر خصوصا دون ان تستطيع اقضاء العربية في المجالات الديني والقانوني والعلمي .

واما في المناطق الشمالية من افريقيا فقد لاقى التعريب صعوبات تعود اسبابها الى عوامل جغرافية واجتماعية ولا سيما في النواحي الجبلية حيث تعيش

القبائل البربرية متشبثة بموآلدها ولهجاتها التي لا تخلو من الحيوة .

ولما فتحت اسبانيا في القرن الثامن (711 م) انتشرت اللغة العربية بين اهاليها من عرب ومستعربين فازدهرت وتطورت هناك مع ازدهار العلوم والفنون وتطورها العظيم الى ان حلت سنة 1492 التي انهزمت فيها آخر امارة عربية .

ومن الشمال الافريقي ايضا انتقلت العربية الى جزيرة مالطة حيث تطورت وصارت تكتب بالحروف اللاتينية فكانت اصلا للغة القومية التي ما زال اهل مالطة يستعملونها الآن .

وهذا الاشعاع العظيم الذي عرفته اللغة العربية في القرون الوسطى لم يعد سببه الى انتشار الاسلام فقط بل اننا نجد له سببا آخر في المزايا الخاصة التي تتمتع بها هذه اللغة المتميزة بشروطها وحيويتها واجازتها ودقتها الامر الذي جعلها تقوم بدور عظيم في مجالي العلم والثقافة طوال حقبة القرون الوسطى . ولئن فقدت بعض نفوذها ابتداء من القرن السادس عشر لما اصيب به العرب من انحطاط سياسي وثقافي ، فان هذه الظاهرة لم تكن الا عبارة عن حالة عابرة وغفوة زائلة تمت بانبعثت اللغة العربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

غير ان تطويرها تطويرا يناسب العصر الحديث لم يكن امرا هينا لما تتطلبه اللغة الناهضة من تنمية في الميدان الحضاري والعلمي ومن خلق مصطلحات جديدة . فبذلت منذ القرن التاسع عشر اقصى الجهود واتخذت جميع الطرق والوسائل من اجل ازدهار العربية في العلوم الفلسفية فغيرت الفاظ واستنبطت اخرى بناء على قواعد الاشتقاق وادخلت غيرها صادرة عن لغات اجنبية . ثم انشئت في القرن العشرين مؤسسات مختصة ونظمت تنظيمات . فظهر اول مجمع بدمشق سنة 1919 ثم مجمع القاهرة سنة 1932 واخيرا مجمع بغداد سنة 1947 ، واصبح كل منها يركز بالعمل في خدمة اللغة العربية والادب والثقافة ونشر المؤلفات القديمة التي ما زال الكثير من مخطوطاتها يطوى حبار الاهمال والنسيان .

على ان اشغال هذه المؤسسات مركزة خاصة حول اللغة والعمل على توحيد مصطلحاتها ، وقد اصبح اقطاب من الاختصاصيين في العالم العربي كله يشاركونها في ذلك . ولكل من هذه المجامع نشرة دورية تصدر مرة في كل ثلاثة اشهر او مرتين في السنة

محتوية على ما حصل عليه من نتائج العمل وعلى قوائم مصطلحات محدثة ودراسات خاصة باللغة الفصحى واللهجات العامية .

ويمكن القول من الآن ان لغة الضاد قد واجهت العديد من انواع الصعوبات دون ان يشوبها شائب العناصر الاجنبية وهي محافظة على شخصيتها وعلى كل بها فلا تباين بين العربية الحديثة والقديمة وقد جددت ونميت على اساس نفس القواعد التي وضعها سبويه المتوفى في سنة 792 م في مصنفه « الكتاب » .

وكان من الطبيعي ان يحدث بعض التطور في تركيب اللغة المصرية وقد حذفت منها التعابير المأثورة وتوسعت لروء مصطلحاتها ، حتى أصبحت اليوم قادرة ومقدمة على مضاهاة سائر اللغات العالمية في الميدان الدولي ، وقد أخذت مكانتها - مثلاً - في منظمة اليونسكو كلفة رسمية .

وهي اللغة القومية لأزيد من مائة مليون عربي يستعملونها في التأليف الأدبي والعلمي وفي الإدارة والصحافة والإذاعة فتشكل الرابطة الوثيقة الذي يربط بعضهم ببعض ويسهل تحقيق وحدتهم الوطنية .

ويوجد في الاقطار العربية بجانب الفصحى لهجات عامية يرجع أصلها الى اللهجات التي كان يتكلم بها عرب شبه الجزيرة الا ان كل واحدة منها طبعتم بطابع خاص حسب العوامل اللغوية المحلية التي اثرت عليها فكان منها العامل الارامي او القبطي او البربري .. وهي الآن تتاثر ايضا باللغات الغربية على ان ارتباطها المشين بالعربية الفصحى يجعلها تتقوى بها وتستمد منها ما ينقصها من المفردات وان كانت هذه اللهجات الاقليمية غير مستعملة لا في الإدارة ولا في الادب باستثناء بعض المؤلفات الفكرية او بعض ما يأتي احيانا من حوار في الاقاصيص والروايات . ومن

ذلك يتضح وجود ازدواجية لغوية في كل بلد عربي .
فهناك :

اولا - لغة رسمية وطنية وهي التي يكتبونها ولا يتكلمون بها الا في بعض الاحيان ، وقد يحدث ذلك مثلا في الجامعات وبمناسبة الاجتماعات الرسمية وعند انعقاد المؤتمرات بين العرب خاصة .

ثانيا - اللهجة العامية التي تختلف شيئا ما مع اختلاف البلاد العربية والتي ربما تميزت ببعض الاناقة عندما تتكلم بها النخبة المثقفة .

اما الدول التي تستعمل العربية كلفة رسمية فهي :

المملكة العربية السعودية ، والجمهورية اليمنية ، وجمهورية جنوب اليمن ، والكويت ، والامارات مثل البحرين وعمان ، وسوريا ، والعراق ، والمملكة الاردنية الهاشمية ، وفلسطين العربية ، ولبنان ، والجمهورية العربية المتحدة ، والسودان ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، وموريطانيا .

واما البلاد التي انتشرت فيها العربية انتشارا هاما فهي : السودان الغربي وجيبوتي وزنجبار ، وهي معروفة ايضا كلفة دين في بعض الاقطار الاسلامية مثل ايران وافغانستان والباكستان واندونيسيا .

وكان للعربية تأثير كبير في المجال الديني والعلمي على لغات اخرى منها الفارسية والتركية والاردية ، وكلها كانت وما زالت تكتب بالحروف العربية باستثناء التركية التي اتخذت الحروف اللاتينية منذ 1928 .

وخشاما يجدر بالذكر ان تشير الى ان الحروف العربية قد قامت بدور هام في الفن العربي الاسلامي كعنصر للزخرفة .